مَوْسُوعَةُ

فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ نُوحٍ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة نوح

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة نوح

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ﴾

افتتح الله سبحانه وتعالى سورة نوح بالإخبار عن أنه عَزَّ وجل قد أرسل نوحاً عليه الصلاة والسلام رسولاً إلى قومه، لينذرهم من عذابه عَزَّ وجل إن لم يُطِيعوه فيما أمره الله تعالى به، من توحيد ربهم، وعبادته وفق ما جاءهم به رسول الله نوح عليه الصلاة والسلام. فقال تعالى ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ إنا كلفنا رسولنا نوحاً عليه الصلاة والسلام بالرسالة التي يحملها إلى قومه من ربهم سبحانه وتعالى. وأن مضمون هذه الرسالة هو ﴿ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ ﴾ أي: التحذير لقومه ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قبل أن يحل عليهم عذاب ربهم عَزَّ في علاه. ونوح عليه الصلاة والسلام هو أول الأنبياء والمرسلين لأهل الأرض، فبعد أن وقع الشرك بعد أبونا آدم عليه السلام أرسل الله تعالى نوحاً إلى قومه.

وقد تصدر البلاغ الحكيم بأداة التوكيد **(إن)** التي انظمت إلى ضمير المتكلم سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّآ ﴾ والذي أفاد التعظيم والتفخيم والتبجيل والعظمة. ومن فوائده: أنه أظهر العناية الخاصة بهم، بأن الله تعالى هو الذي أرسل لهم نوحاً نبياً ورسولاً. كما أظهر تفخيم الخبر للمُخَاطَبين أجمعين.

فيذكر الله تعالى أنه أرسل نوحاً إلى قومه ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ ﴾ ليفيد: فكما أنه عَزَّ وجل أرسل نوحاً إلى قومه، ولم يُرسِل إليهم مَلَكاً، فكذلك أرسل إليكم محمداً صلى الله عليه وسلم. فقد أرسل لهم

رجلاً منهم، يعرفونه حق المعرفة بسجاياه الرفيعة، كما تعرفون محمداً صلى الله عليه وسلم بأخلاقه وسجاياه التي لا تُعيبون منه فيها شيئاً، وفي هذا تأكيد وإثبات أن بعث الرُّسُل يكون من قوم المرسل إليهم، ومؤكداً ذلك ببيانه وتأكيده سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ ﴾ فنسبه فيما أرسل به إلى قومه، قائلاً له سبحانه وتعالى ﴿ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ ﴾ فأنذرهم بتحذيرهم مما هم عليه من الشرك، وبوجوب اتباع رسولهم نوح عليه الصلاة والسلام. فإن غاية الإرسال قائم على الإنذار الواضح ﴿ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ ﴾ بما يدل على أنه قائم على الحجة والبرهان التي أثبتت أنه ينذرهم مما هم فيه، من أجل أن يلزموا ما أمرهم الله تعالى به. وكون الأمر قد اقتصر على الإنذار دون ذكر البشارة، فإن هذا لا يعني أنه ليست هناك ثمة بشارة، ولكن ليظهر الله تعالى قوة الإنذار بسبب تماديهم في الكفر، فاحتاج الأمر إلى إبراز الإنذار وإظهاره. بل ورد التأكيد بقوله عَزَّ وجل ﴿ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ فبادروا وسارعوا بالتوبة والانقياد لدين ربكم قبل أن يحل بكم العذاب. وأن صفة هذا العذاب أنه أليم، كما قال تعالى ﴿ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ أي: شديد في إصابته. ومُوجع في أثره. وهو ما حصل لهم من الغرق. ومن دقائق البيان هو ما ورد في دلالة الإتيان بالعذاب ﴿ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ أي: يحل عليهم، مما يفيد قوة التهديد، والتعظيم لهذا العذاب. وبما يعني أنه سيأتيهم هذا العذاب من ربهم، فيحل عليهم في ديارهم. وليدل على ما بعده من عذاب الآخرة.

فامتثل نوح عليه الصلاة والسلام لأمر ربه، فخاطب قومه عليه الصلاة والسلام ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴾ إني لكم من ربي رسولاً، من أجل أن أنذركم من عقابه لكم إن لم تتبعوا ما جئتكم به من ربكم جَلَّ جلاله. وقد خاطب عليه الصلاة والسلام قومه من خلال إظهار قوة انتسابه إليهم، وحرصه على مصلحتهم ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ ﴾ فأورد لهم مركز وقوة ومحور العلاقة، بأنكم قومي، والتي مفادها قوة الحرص عليهم، والإخلاص لهم، ثم بعد ذلك أورد لهم المهمة الْمُوكَلَة إليه ﴿ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴾ إني لكم من ربي رسولاً، من أجل أن أنذركم من عقابه لكم إن لم تتبعوا ما جئتكم به من ربكم جَلَّ جلاله. فإن وجه الإرسال قائم على الإنذار الواضح ﴿ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴾ فإن دلالة ﴿ مُّبِينٌ ﴾ توضح أن هذا الإنذار واضح وجلي، بأدلته وحججه. بما يفيد ويدل على أنه قائم على الحجة والبرهان التي أثبتت أنه ينذرهم مما هم فيه من الشرك بتكليف من الله العزيز الحكيم، ليلتزموا بما أمرهم الله تعالى به.

ومن براعة السياق أنه انتقل من أسلوب الإخبار عن الغائب ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ إلى مخاطبة نوح إلى قومه مباشرة ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ دون أن يجد القارئ والسامع أي اختلال في انتقال السياق، ليظهر الإعجاز في بناء السياق في القرآن الكريم، والذي لا يستطيع عليه البلغاء ولو اجتمعوا على أن يأتوا بمثله. وكذلك إظهار حرص نوح عليه السلام فيما أنذر قومه منه، بأسلوب التأكيد، من خلال أداة التأكيد **(إنّ)** الملتصقة بضمير المتكلم، في قوله ﴿إِنِّى﴾ لتفيد الحرص عليهم. إني حريص عليكم، ثم تأكيد الحرص بالتخصيص لهم ﴿إِنِّى لَكُمْ﴾ أي: أنتم المخصوصون بالرسالة. بما يظهر قوة وشدة حرصه عليهم، وخوفه عليهم. مما يبين ويؤكد حرصه وقوة مراده لهم بالخير، مما يبين أن المرسلين عليهم الصلاة والسلام يحملون همَّ من أُرسِلُوا إليهم، بحرصهم على إسلامهم وطاعتهم لربهم تبارك وتعالى، واتقاء العذاب، والفوز بما عند الرحمن من جنات النعيم. ودلالة ﴿مُّبِينٌ﴾ تفيد كمال الوضوح، وكمال التوضيح بما معه من الحجج والبراهين التي منحه الله تعالى له حتى يواجه بها قومه عليه الصلاة والسلام.

ثم حدد رسالته فيما هو مطلوب منهم ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ فقد تضمنت الرسالة ثلاثة أمور: الأمر الأول: هو ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: أفردوا الله تعالى بالعبادة. فعليكم بتوحيد ربكم، ونفي الشريك له عَزَّ وجل. وفي البدء بالتوحيد ونفي الشرك دليل على أنه رأس الأمر. وأن الله تعالى لا يقبل من المشرك شيئاً البتة. والأمر الثاني: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ بأن تراقبوا ربكم في جميع شؤونكم، فتخافوا عقابه، وترجون ثوابه. ومن فوائد القيام بأداء موجبات التقوى، أنه بها تنضبط تصرفات العبد. لأن الرقيب الذي يخافه العبد هو الله تعالى، الذي يراه أينما حَلَّ وارتحل. فيتجاوز بالتقوى رؤية الناس إلى رؤية الله تعالى، وعلمه بجميع تصرفاته. والأمر الثالث: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ وأن تمتثلوا بجميع ما آمركم وأنهاكم عنه. لأنه لا يأمر ولا ينهى إلا بتوجيه من الله تعالى له. مما يبين أن دين الله تعالى قائم على الحقائق، وعلى البعد عن الجهل، وأنه قائم على العلم الحق، وعلى التنظيم والترتيب، بل يُعَلِّم المؤمن كيف يبني تنظيماته وترتيباته، وأولوياته.

فإن قمتم بذلك فلكم من الله تعالى مغفرة ما سلف من الذنوب، بل ويَمُدُّ في أعماركم. فقال الله تعالى عما قاله نوح لقومه عليه الصلاة والسلام ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فمقابل طاعتكم، والتزامكم لله تعالى بما أمر وشرع، فإن الله ربكم يكافئكم بأمرين عظيمين: الأول: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: يمحو عنكم ما سلف من الذنوب. وقد ورد هذا

البيان من الله تعالى بحرف ﴿مِّن﴾ في قوله عَزَّ وجل ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ والتي أفادت التوكيد وليس التبعيض. قال الزجاج رحمه الله تعالى: إنما دخلت **(من)** ها هنا لتختص الذنوب من سائر الأشياء، ولن تدخل لتبعيض الذنوب[١] وقال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: فإن قال قائل: أو ليست **(من)** دالة على البعض؟ قيل: إن لها معنيين، وموضعين، فأما أحد الموضعين: فهو الموضع الذي لا يصح فيه غيرها. وإذا كان ذلك كذلك لم تَدُل إلا على البعض. وذلك كقولك اشتريت من مماليكك. فلا يصلح في هذا الموضع غيرها، ومعناها: البعض. اشتريت بعض مماليكك ومن مماليكك مملوكاً. والموضع الآخر، هو الذي يصلح فيه مكانها **(عن)** فإذا صَلَحت مكانها **(عن)** دلت على الجميع. وذلك كقولك: وجع بطني طعاماً طعمته[٢] وقال ابن عاشور رحمه الله تعالى: وحرف ﴿مِّن﴾ زائد للتوكيد، وهو رأي كثير من أئمة النحو[٣] وهذا الشأن من دقائق اللغة العربية، وبما يفيد أهمية اللغة في فهم دقائق البيان.

والأمر الثاني: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: يكافئكم بتأخير موتكم إلى منتهى آجالكم، فلا يعذبكم بالهلاك. وهو ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ الذي حدده الله تعالى لهم من الأجل، كما يفيد أيضاً البركة في أعمارهم، فيجمع لهم بين الأمرين، أو بما يشاء سبحانه وتعالى. ثم يبين عَزَّ وجل بأن الأجل إذا حل بأحد، فلا يمكن رده وتأجيله أبداً. فقال عَزَّ وجل ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ فيقرر الله تبارك وتعالى عظيم سلطانه الذي يدلهم على كمال قدرته، وأنه لا إله غيره. فإن الأجل والتقدير من الأعمار إذا انتهى فإنه لا يُؤخر. بما يفيد لا يمكن أن يتوقاه أحدٌ أبداً، بأي وسيلة وسبب من الأسباب. بما يفيد فإنه لا يمكنكم حينئذ الإيمان، وقد حل بكم الموت. ثم يُطَمِّعُهم في فهم وإدراك ذلك، فيقول عَزَّ وجل لهم ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فلو كنتم تدركون وتفهمون شأن الموت، وانقضاء الآجال، وأنه لا أحد يمكنه تأجيل موت نفسه، ولا أن يتدارك ما فاته من الإيمان، لسارعتم للطاعة والامتثال. فإنه دليل كاف على عظمة ربكم ووحدانيته، ووجوب أن تتقوه وتطيعوا رسوله نوح عليه الصلاة والسلام.

فلما بادروا رسولهم بالتكذيب، رفع نوح عليه الصلاة والسلام شكواه من قومه إلى الله عَزَّ وجل ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ ربي إني دعوت قومي بما أمرتني به من الإيمان والتوحيد، وإفرادك بالعبادة وحدك لا شريك لك. وبلغ بي الشأن في دعوتهم أنني أدعوهم بالليل والنهار. بما يفيد ويبين أنه قد بذل

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٩٧/٨)
(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٨٩/٢٣)
(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٦٢/١٢)

غاية جهده عليه الصلاة والسلام، فلم يترك وقتاً مناسباً من الليل والنهار إلا استثمره في دعوتهم. وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً. مما يبين عظيم الجهد، وطول الزمن الذي تعايش به معهم في دعوتهم إلى الله تعالى. وبما يُعَلِّم المؤمنين أهمية القيام بما كلفهم الله تعالى به، وأن لا يقصروا ولا يتوانوا في ذلك، وأن يصبروا على جميع ما يواجهون. وهي معالجة لشأن ما يواجه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من صدود الصادين عن دعوته، ومحاربتهم لهم. وكذلك فيه توجيه لعموم الناس أن لا تكونوا كقوم نوح مع رسولهم عليه الصلاة والسلام.

ثم يبين عليه الصلاة والسلام قوة معارضتهم وبعدهم عما يدعوهم إليه ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴾ فكلما زدت في دعوتهم قابلوني بالزيادة في النفرة والامتعاض والهجران. فقد كانوا مناقضين للحرص بالفرار من الحق والخير. وبما يفيد أنه كان يلزم من كثرة دعائي لهم أن يزدادوا قرباً وفهماً، ولكنهم كانوا على النقيض من ذلك.

وفي وصف بُعدهم ونفرتهم بدلالة ﴿ فِرَارًا ﴾ ما يفيد مبالغتهم في التحدي والتباعد، بأسلوب التعامل بالنقيض، كما تفيد دلالة ﴿ فِرَارًا ﴾ قوة الهروب، فالفرار يكون عادة نتيجة الحذر عن المؤذي، والمخيف، بما يبين أن حالهم كان هو حال الكاره للامتثال والطاعة. فأظهر صورتهم وحالهم في أحسن بيان من الوصف.

ثم يزداد التوضيح لمبالغتهم في العناد والكفر ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴾ فكلما دعوتهم بما وعدتهم به يا الله من المغفرة إن استجابوا لدينك وشرعك. فإنهم يقابلون ذلك بأربعة أمور: الأول: ﴿ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ ﴾ بما يفيد مبالغتهم في أن لا يسمعوا من كلامه عليه السلام شيئاً مما يدعوهم إليه من الحق والخير، ومغفرة الذنوب. والأمر الثاني: ﴿ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ ﴾ واستخدموا أطراف ملابسهم أغطية يسترون بها عيونهم من أن ينظروا إليَّ، بما يفيد المبالغة في كراهة الاستماع مع كراهية النظر. ليفيد قوة مبالغتهم في كراهية الحق إلى أقصى ما يكون من النفرة والفرار.

والأمر الثالث: ﴿ وَأَصَرُّواْ ﴾ أي بلغ بهم الأمر إلى درجة الإصرار، وهو العناد القائم على قوة العزم، وشدة العقد على ما هم عليه. فقد بلغوا في كفرهم درجة الغلو وقوة وشدة الإرادة والعزم، وشدة العقد على ما هم عليه من الفرار والتولي عما يدعوهم إليه رسولهم نوح عليه الصلاة والسلام. والأمر الرابع ﴿ وَٱسْتَكْبَرُواْ ﴾ أي: بالغوا وأوغلوا في التكبر والاستنكاف عن الاستجابة إلى حد الأنفة من الاستماع إليَّ، ورؤيتي، بأن ينظروا إليَّ. ثم يؤكد هذا الاستكبار بالمفعول المطلق ﴿ ٱسْتِكْبَارًا ﴾ الذي يعطي دلالة المبالغة في الاستكبار.

بما يفيد أن الاستكبار والاستعلاء قد تمكن منهم مبلغاً وغاية عالية ومتعاظمة، فإنهم متعاظمون في أنفسهم عن قبول الحق.

وقد أفاد معنى ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا ﴾ تكرار الدعوة لهم، مع تكرار النفور منهم. ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ ﴾ وهو طلب محفز لهم بمحو الذنوب التي هم عليها من الشرك، وعموم المعاصي. ولكنهم لم يستجيبوا، فأهلكهم الله تعالى بالغرق. مما يفيد التحذير للمعاندين للرسول صلى الله عليه وسلم، بأن لا تكونوا كقوم نوح عليه الصلاة والسلام، فاستجيبوا لربكم، حتى لا يأخذكم العذاب كما أخذ قوم نوح عليه الصلاة والسلام. ففي هذا البيان موعظة للجاحدين، وتقوية لعزيمة الرسول صلى الله عليه وسلم، وكذلك فيه ما يبين أهمية القدوة، وحاجة الإنسان إلى التذكير بها، مهما علت رتبة الإنسان.

﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾

ثم ينتقل نوح عليه الصلاة والسلام إلى بيان الأساليب التي استخدمها معهم في الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، بما يكشف ويبين ويُظهر قوة المعاناة التي كان يعانيها نوح عليه السلام مع قومه، من خلال هذه السنوات الطويلة، وهو يدعوا فيها قومه إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وهم في نفور من الحق. فقال الله تعالى عن نوح عليه الصلاة والسلام أنه يقول شاكيا إلى ربه عَزَّ في علاه ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾ أي: جاهرتهم بالدعوة، فأظهرت لهم دعوتي لهم على سبيل الإعلان المضاد للإسرار.

ثم بعد أن أفرد الدعوة لهم مجاهرة. انتقل عليه الصلاة والسلام إلى الجمع بين الجهر والإسرار ﴿ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ أي: انتقلت إلى الجمع بين الإعلان لهم بما أرسلتني وكلفتني به يا الله، وكذلك بالإسرار والتفرد بهم، فيما بيني وبينهم. لتشمل إتيانهم في منازلهم، واغتنام كل فرصة ينفرد ببعضهم عن بعض. مع الاستمرار بالجهر لهم بها في منتدياتهم، وتجمعاتهم. بما يفيد أنه عليه الصلاة والسلام قد استخدم كافة

الأساليب، فلم يترك طريقاً أو وسيلة إلا استخدمها معهم عليه الصلاة والسلام. بل أكد عليه السلام أنه اعتمد أسلوب الإسرار ﴿ وَأَسۡرَرۡتُ ﴾ كمنهج دعوي إلى أقصى ما يمكن، حيث ألحق بيانه له بأسلوب المفعول المطلق، وهي ﴿ إِسۡرَارٗا ﴾ فقال عليه الصلاة والسلام ﴿ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ﴾ التي أفادت المبالغة المبنية على التأكيد باتخاذ الإسرار كمنهج قسيم لمنهج الإعلان والإجهار بالدعوة.

لتعطي قوة مجاهدة النفس على أداء رسالة التكليف التي كلفه الله تعالى بها، وأمره بدعوة قومه، وعدم الاستسلام للصدود منهم، وكان ذلك على مدار ألف سنة إلا خمسين عاماً. بما يقوي من عزيمة الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على الصبر، والاستمرار في الدعوة إلى الله تعالى. وترك النتيجة إلى الله جَلَّ جلاله. كما تُعَلِّم المؤمن أهمية الصبر على الغير في الدعوة إلى الله تعالى، وفي النصح، والإرشاد، وفي التعليم، بل وفي جميع مجالات الحياة المختلفة.

كما أن في ذلك بيان عظيم لِحِلم الله تعالى، بعدم معاجلتهم بما يستحقون من العقوبة، كما أن في أمره عَزَّ وجل لرسوله نوح عليه الصلاة والسلام بالصبر على قومه ما يفيد أن منهج دعوة الله تعالى للعباد قائم على الرحمة التي تتطلب الصبر مع المدعوين. وكذلك الشأن معكم، فإن حلمنا وصبر رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم عليكم هو من باب الحلم، وإعطاء العباد المهلة لمراجعة أنفسهم، وليس الشأن والأمر أنه لا عقوبة على التمادي في العناد والتكذيب، فاعتبروا بحلمنا وصبر رسولنا نوح على قومه عليه الصلاة والسلام. فلكم فيهم عبرة وعظة.

ثم يخبر عليه الصلاة والسلام عن البشارة التي كان يبشرهم بها، لِيُقبِلُوا ويَقْبَلُوا بدين الله تعالى ﴿ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ﴾ فكان يكرر عليهم ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً هذا القول العظيم، وما بعده من البيان الفصيح، الذي يبين لهم عظمة مثوبة الله تعالى لهم إن استغفروا ربهم مما هم عليه من الكفر، واتبعوا رسوله عليه الصلاة والسلام ﴿ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ﴾ فقد طلبت منهم أن يستغفروا ربهم، فيتوسلوا إليه أن يغفر لهم ما كان منهم من الكفر والمعاصي، وأن يُؤمنوا ويُصدقوا ويطيعوا الله تعالى، ويمتثلوا لما أمر به.

وقد أكد لهم مغفرة الله تعالى لمن أطاع ببيان عظيم، وهو ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ﴾ أي: إن الله تعالى موصوف بالمغفرة لكل من استغفر وأناب إلى ربه عَزَّ وجل. وأن هذه المغفرة هي صفة ثابتة لا تتغير. ومؤكداً لذلك بحرف **(إن)** الملتحق به الضمير العائد لله عَزَّ وجل ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ وثبوت صفة المغفر بحرف ﴿ كَانَ ﴾ كما أورد المغفرة بصيغة المبالغة ﴿ غَفَّارٗا ﴾ التي تعطي دلالة المبالغة في المغفرة، فإنه سبحانه وتعالى يغفر

للمستغفر، مهما بلغت ذنوبه. مما يبين أنه مهما بلغت ذنوب العبد في الكثرة والعظمة فإن الله تعالى يمحوها ويزيلها، ويكرمه بدلاً منها بالحسنات، مكافأة لرجوعه إلى ربه تبارك وتعالى. كما قال عَزَّ وجل في الحديث القدسي (يا ابن آدم! لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك. ولا أبالي)[1] وكما قال تعالى في سورة الفرقان ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ فبرحمته تبارك وتعالى، أنه يتوب ويغفر لكل من تاب، مهما بلغت ذنوبه، وكانت معصيته، فاستثنى من العذاب من اتصف بأمرين: الأول: التائبين ﴿ إِلَّا مَن تَابَ ﴾ وهي التي تجمع الندم على ما كان من المعصية، والإقلاع عن المعصية، والعزم على أن لا يعود إليها. فتشمل حال واقعه، وماضيه، ومستقبله. وثانياً: أن يُثبت ذلك بمسلك الصلاح ﴿ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾ فيؤمن الإيمان الصادق، وأن يعمل بدين الله تعالى، الذي هو العمل الصالح، والذي تمثله شريعة الله تعالى ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ﴾ فالذين قاموا بالتوبة والعمل الصالح فإن الله تعالى يبدل سيئاتهم حسنات. فإن من كرم الله تعالى عليهم أنه لا يمحو ذنوبهم فقط، بل يبدلها إلى حسنات. وفي هذا دليل على رحمة الله تعالى وكرمه وجوده، وأنه يريد لعباده الجنة، ولا يريد لهم النار، وأنه رحيم ودود سبحانه وتعالى. بما يبين عظيم رحمة الله تعالى، وعظيم مغفرته لكل من أذنب وتاب ورجع إلى الله تعالى بالطاعة والامتثال.

وبعد بيان نوح عليه الصلاة والسلام لقومه بما يحظون به في الآخرة من المغفرة إن أطاعوا ربهم، وما يترتب على ذلك من دخول الجنة، فإنه ينتقل بهم إلى ما سيجدونه من ربهم في الحياة الدنيا، وأول ذلك نزول الغيث، وما يتحقق به من الخير لهم، ولأنعامهم، ولتجاراتهم. ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ أي: يرسل عليكم الأمطار من السماء في تتابع. لأن دلالة ﴿ مِّدْرَارًا ﴾ تفيد كثرة نزول المطر، وتوارده عليهم. بما يجعل الأرض لا تجف. فإن أديتم ما هو مطلوب منكم من الاستغفار والتوبة، يرسل الله تعالى عليكم الغيث، من الأمطار التي تحيا بها البلاد، ويذهب بها الجدب والقحط. قال القرطبي رحمه الله تعالى: أي: يُرسل ماء السماء، ففيه إضمار. وقال مقاتل رحمه الله تعالى: لما كذبوا نوحاً زمناً طويلاً حبس الله عنهم المطر، وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة. فهلكت مواشيهم، وزروعهم، فصاروا إلى نوح عليه السلام، واستغاثوا به. فقال: ﴿ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾ أي: لم يزل كذلك لمن أناب إليه. ثم قال ترغيباً في الإيمان ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا

(١) الترمذي، برقم (٣٥٤٠) واللفظ له. وأحمد برقم (١٣٤٩٣) الألباني، صحيح الترغيب (٣٣٨٢)

﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ قال قتادة رحمه الله تعالى: عَلِمَ نبي الله عليه الصلاة والسلام أنهم أهل حرص على الدنيا. فقال: هَلُمُّوا إلى طاعة الله تعالى، فإن في طاعة الله عَزَّ وجل دَرَك الدنيا والآخرة[١] وقد أفادت دلالة ﴿مِّدْرَارًا﴾ كثرة نزول المطر، وتوارده عليهم، بحيث يحصل الانتعاش لهم، ولزروعهم، ولمواشيهم. مما يبين فضل الاستغفار، وأنه أحد أبواب توارد الخير العظيمة. فإن من صفات هذا المطر أنه ﴿مِّدْرَارًا﴾ أي مطراً كثيراً غزيراً، يتبع بعضه بعضا، مما يفيد المبالغة في العطاء والكرم والعناية بكم إن أنتم تبتم إلى ربكم، ورجعتم إليه باتباع رسوله نوح عليه الصلاة والسلام.

ومن دقائق البيان أن الله سبحانه وتعالى نسب وعزا إنزال الماء له وحده لا شريك له، ليعلمهم ويعلم غيرهم توحيده وإفراده بالعبادة والرجاء والتوسل ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ فهو عَزَّ وجل الذي يرسل النعمة من الأمطار وغيره. وقد وصف نزول الماء بدلالة الإرسال ﴿يُرْسِلِ﴾ لأن الإرسال هو العطاء من المعطي من غير مباشرة. كما أفاد الإرسال لفت الانتباه إلى العلو ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ﴾ وورد دلالة الماء من خلال لفظ السماء، والتي تعبر عن العلو، فيأتيكم بإرساله لكم من السماء، والذي يمتنع على أي أحد أن يأتي به غير القادر سبحانه وتعالى. بما يفيد أن هذا العطاء هو إسناد وإظهار لدعوة نوح عليه الصلاة والسلام، وأن الشأن لله تعالى وحده لا شريك له عَزَّ في علاه. فاستجيبوا لمن بيده الملك، وتوبوا إليه، وأطيعوا رسوله الذي جاءكم بدين الحق.

كما أن من دقائق البيان أن كلمة ﴿يُرْسِلِ﴾ تفيد تخصيص الإرسال بأنه من الله تعالى، وكذلك خصوصية العطاء من المرسل جَلَّ جلاله. كما أن جملة ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ﴾ تمثل العلو: فهو علو السحاب، وعلوا الْمُرْسِل سبحانه وتعالى، فهو الله ربكم الرزاق تبارك وتعالى، وأن مصدر الخير هو من الله تعالى، كما أن في تخصيصه بكلمة ﴿عَلَيْكُم﴾ يفيد التكريم الخاص لكم، وأنه عطاء لكم من الله تعالى، لتركِكم الشرك إن تركتموه، وقمتم بتوحيد الله سبحانه وتعالى، وطاعتكم له عَزَّ وجل ولرسوله نوح عليه الصلاة والسلام.

ثم أردف ذلك بما يحتاجونه أيضاً من نعيم الحياة الدنيا ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ فيمدكم سبحانه وتعالى بكثرة الأموال ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ﴾ بحيث يعطيكم البركة في

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٨/١٩٥)

جهودكم وتكسبكم وتجارتكم التي تطلبون بها المال. ومن دقائق البيان أن دلالة ﴿ وَيُمْدِدْكُمْ ﴾ تفيد التزويد والعطاء، والزيادة والتكثير لهم في الأموال. وأما المال فهو كل ما يتزود به الإنسان مما يحتاجه. فهو كل ما يُنتفع به، مما يحوزه الإنسان، وكل وسيلة يتحصل بها الإنسان على حوائجه، كالنقود. ثم عطف على المال البنين ﴿ وَبَنِينَ ﴾ بما يدل على تكثير نسلهم، وذلك لحاجتهم الماسة إليهم في الخدمة والمعونة. وفي تخصيص البنين دون البنات هو لإظهار علة الحاجة، ولا ينفي ذلك البنات، ولكن لإفادة التلبية لما هم إليه أشد حاجة. وبما يفيد أن التنصيص بالبنين هو لإظهار دواعيه، مما يبين عمق نوع التخصيص في العطاء، مع عمق البيان، حتى يظهر لهم قوة التناسب بين العطاء ومقام الحاجة، وموطن القوة التي يحتاجونها، بأنها كانت في جنس البنين. وكذلك في تقديم المال على البنين ما يبين علة الترتيب القائمة على شدة الحاجة. فمن جزالة السياق كثرة دلالات ألفاظه، ودلالات التقديم والتأخير. وتخصيص لفظة دون أخرى بما يناسب الحال.

ثم عطف السياق عليها في الترتيب الحاجة الثالثة: التي هي ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ أي: ويمتعكم بالمزارع والبساتين، التي تتدفق من بينها مجاري المياه. بل سماها سبحانه وتعالى بالأنهار، لبيان كثرة مائها، وقوة تدفقها، بما تنتعش به حياتكم. فأخبرهم نوح عليه السلام بأن استغفاركم مع إيمانكم وطاعتكم يحقق الله تعالى به لكم هذا النعيم الدنيوي، وكذلك مغفرة الذنوب لتسلموا من عذاب كفركم، وتدخلون الجنة في الآخرة بسلام. مما يبين منزلة ومكانة الاستغفار للمؤمنين، بأنه الجالب للخير بجميع أنواعه.

ثم يتوجه عليه الصلاة والسلام إلى قومه بسؤال استفهامي، يحمل دلالة الاستنكار عليهم، من عدم تجاوبهم مع ما وعدهم به من ربهم سبحانه وتعالى، فقال ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ ما العذر لكم في ترك رجاء ربكم، فلا تخافونه؟ ﴿ مَّا لَكُمْ ﴾ سؤال عن علة الامتناع المتعلقة بأنكم ﴿ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ والوقار هو: التعظيم والتوقير والإجلال. النابع من الخوف. فمالكم لا تخافون حقوق وجلال عظمة الله ربكم عَزَّ وجل؟ فتؤمنوا بوحدانية ربكم سبحانه وتعالى، فتجردوه من الشريك، وتوحدوه، وتفردوه بالعبادة وعموم الطاعة والامتثال، ولا تشركوا به شيئاً، وتطيعوه وتستغفرونه عَزَّ في علاه.

فيقررهم بهذا السؤال ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ أنهم لا يرون لله تعالى طاعة، ولا يخافون عاقبة كفرهم، ولا يخافون عظمة لله تعالى. فهي تستوعب عمق أصول الكفر، الذي أدى بهم إلى عدم التجاوب مع جميع ما قاله لهم.

ثم أكد لهم ما يُوجب عليهم مخافة الله تعالى، وأن يعظمونه ويوقرونه جَلَّ جلاله، فيؤمنوا به عَزَّ في علاه، ويطيعوا أمره عَزَّ وجَل. فقال: ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ فإن ربكم قد جعل لكم في أنفسكم آيات عظيمة

بأنه ربكم لا شريك له. إذ خلقكم في بطون أمهاتكم أطواراً متتابعة: من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم أجنة، حتى حان وقت ولادتكم. ثم انتقلتم في أطوار متتابعة خارج بطون أمهاتكم، من أطفال إلى غلمان، إلى رجال. بل جمعت دلالتها حتى اختلاف الأجساد والألوان، والأطوال. قال ابن الأنباري رحمه الله تعالى: الْطَّور: الحال. وجمعه أطوار. وقال ابن فارس رحمه الله تعالى: الْطَّور: التارة. طوراً بعد طور. أي: تارة بعد تارة. وقيل: أراد بالأطوار: اختلاف المناطق، والأخلاق، ومن طويل، وقصير، وغير ذلك[١] فجمعت دلالة الأطوار ما يُوجب التأمل الذي يقود إلى الإيمان، لعظمة تدبير الله تعالى في أحوال وأطوار هذا الإنسان، وما يحصل له من التحول في حياته. فإن تأملكم في أطوار أنفسكم يُوجب عليكم التصديق والإيمان، وإفراد الله تعالى بالعبادة، التي أمركم بها رسولكم نوح عليه الصلاة والسلام. مما يفيد أن مَن تأمل في ذاته فقط، فإنه يدرك عظمة الخالق سبحانه وتعالى، وأنه لا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له، ووجوب اتباع رُسُلِه، وخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم بعد هذا الاستدلال العظيم بأطوار خلق الإنسان ينتقل بهم البيان إلى دليل آخر، من خلال التأمل في ملكوت السماوات والأرض. فقال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ ألم تشاهدوا بأبصاركم وبصائركم عظمة ما خلق الله تعالى من السماوات السبع، وكل واحدة هي فوق الأخرى. فمن رأى ذلك أدرك حتماً عظمة الخالق سبحانه وتعالى، وأنه على كل شيء قدير. وبالتالي فكما أن هذا الملكوت حق، فكذلك الغيب الذي أخبر به سبحانه وتعالى هو حق، فدلائل المشاهدة حجة ودليل لحقيقة الغيب، ومنه يوم القيامة، والبعث والنشور، والحساب، والجزاء، والجنة والنار. فليس هناك ما يدعو إلى تكذيب الحجج والبراهين التي أظهرها الله تعالى مع المرسلين، ومنهم نوح عليه الصلاة والسلام، وخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم.

وقد بدأ البيان بحرف الاستفهام ﴿ أَلَمْ ﴾ الذي يقررهم بالرؤية والمشاهدة للدلائل، فقال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ ألم تشاهدوا بأبصاركم وبصائركم عظمة ما خلق الله تعالى من السماوات السبع ﴿ طِبَاقًا ﴾ أي: بعضها فوق بعض. وقد بدأ الخطاب في الآية الكريمة بشد أذهان الْمُخَاطَبين بهذا الاستفهام الذي يشد الانتباه بالنظر ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ ﴾ التي أفادت الاستفهام على سبيل التقرير بما هو مُشاهد ومحسوس ومتقرر عند الْمُخَاطَبين من الخلق العظيم. فَيُلْجِئُهُم بذلك إلى الحقيقة والبرهان والدليل المحسوس الذي يعايشه الْمُخَاطَب كل لحظة في حياته من السماوات التي تعلوه، وما فيها من الكواكب السيارة،

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٩٨/٨)

والشمس والقمر، فيشاهد بعينه وبصيرته. وقد وورد الخطاب الاستفهامي ﴿ أَلَمْ تَرَوْا ﴾ دون تحديد وتعيين فرداً بعينه من الْمُخَاطَبِين ﴿ أَلَمْ تَرَوْا ﴾ ألم تشاهدوا أيها المخاطبون، دون تحديد، ليشمل من خاطبهم سابقاً من قوم نوح، ومن يخاطبهم اليوم، بل وجميع عباده منذ نزول هذه الآية العظيمة إلى أن يُفنِي اللهُ تعالى الأرضَ ومن عليها بقيام الساعة. وهو سؤال استنكار على من لا يتدبر ويستدل به على عظمة الخالق، ودقة تدبيره، وعظيم سلطانه، ورحمته بعباده، وكذلك هو سؤال تعجب ممن لم يتدبر ويتعظ ويستدل به على وحدانية الله تعالى.

وتشمل دلالة ﴿ أَلَمْ تَرَوْا ﴾ الرؤية المباشرة للشيء، وتشمل كذلك الإخبار الذي دل أحدهما على الآخر. فعظمة السماء الدنيا تستدعي أن يؤمن بغيرها من السماوات التي لا يعاينها مباشرة. قال القرطبي رحمه الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا ﴾ على جهة الإخبار، لا على جهة المعاينة، كما تقول: ألم ترني كيف صنعت بفلان كذا وكذا[1] فهي تشمل معاينة ومشاهدة السماء الدنيا، وأن غيرها يدل عليها، وأنها مثلها من السماوات السبع. فلا تفاوت بينها في قوتها وعظمتها.

بل جاء التوجيه الكريم بالنظر مقترناً بأداة الاستفهام ﴿كَيْفَ﴾ فقال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ والتي أفادت التنبيه، وتوجيه الذهن للاعتبار، والتأمل والتفكر في تقدير هذا الخلق المرتفع العظيم، كما أن دلالة ﴿كَيْفَ﴾ أعطت المزيد عن حال الأمر المنظور إليه، ودلالته، وأن لفظة ﴿تَرَوْا ﴾ متعلقة بالْمُخَاطَبين أنفسهم، بأن يتأملوا بتقليب النظر مع الفكر ﴿كَيْفَ﴾ التي تستثير دلالتها في خطاب القرآن الكريم الذهن، ليتصور دلالات ما يحيط به من الكون العظيم. وبما يدل على نعمة التأمل والملاحظة والاستنتاج والاستنباط من واقع الحال. فإن نظر البصر والبصيرة نعمة عظيمة، ليتفقه به الإنسان في المنافع والمصالح، وفي الخطأ والصواب، وأنه وسيلة من وسائل المعرفة لاكتشاف الحقائق، وما تدل عليه. ومن الناحية التربوية فإن نصوص القرآن الكريم تحمل مقاصداً علاجية للواقع، وكذلك إنمائية لتنمية الخير والصلاح في النفس البشرية، ووقائية من أن يسلك الإنسان مسالك الشر وعواقبه الوخيمة. وأن دلالات الآيات المشاهدة تدل على حقائق الغيب.

---

(١) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (١٩٧/١٨)

ولفظة ﴿كَيْفَ﴾ لفظ استفهام، يتوصل به إلى الدليل من خلال حال الرؤيا والتأمل، والتفكر، فهو استفهام سيأخذ بالمخاطَب إلى مشاعر التعظيم للخالق سبحانه وتعالى بما يراه من عظمة السماوات، وما فيها من الكواكب السيارة في دقة متناهية. وهو أسلوب يحمل كذلك التوقف والتعجب من دلالات الكون التي تدل على عظيم القدرة الربانية، التي تؤكد وجوب الإيمان بالغيب والبعث والحساب والجزاء. وفي ذلك استثارة للذهن بالتفكر في واقع الحال وفي المآل، فإن أسلوب القرآن العظيم يستثير العقول، والأفئدة، والمشاعر ليتحقق الخير للنفس المتأملة المستجيبة للموعظة.

ومن الفوائد الأسلوبية في قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ ﴾ أنها تلفت الانتباه إلى تقليب البصر والتأمل، وتقليب الفكر في الشيء، ليكتشف ما فيه من الحقائق المذهلة، وما فيه من الْحُسْن في التدبير والعطاء. فإنه استفهام توقف وتدبر، فأين عقولهم عن هذا التسخير الذي يرونه بأبصارهم.

كما أن من الفوائد الأسلوبية أنه عند اقتران ﴿ أَلَمْ تَرَوْا ﴾ التي تستدعي النظر ولفت الانتباه مع دلالات ﴿كَيْفَ﴾ التي زادت من أهمية العمق في التأمل، وتقليب البصر والبصيرة. والتي تُحرك عقل الإنسان للاستدلال، والقياس، الذي يقوي الإيمان بالغيب. فإن جملة ﴿ أَلَمْ تَرَوْا ﴾ متعلقة بالْمُخَاطَبين نحو التأمل وإمعان النظر بالبصر. بينما ﴿كَيْفَ﴾ جمعت مع النظر إشغال العقل والفكر بالتدبر في خلق السماوات السبع. من أجل أن يخرج الْمُخَاطَبون بالنتيجة المقنعة بفساد منهجهم الاعتقادي، الذي أدى إلى فساد منهجهم في العبادة، فجعلهم يتجرؤون على الحق، وعلى من أُنزل الحق، وعلى الرسول الذي أُنزِل عليه الحق، ويدعو إلى الحق. فيكذبون كذباً لا لبس في بهتانه. مما يفيد أنه قد تحقق من تعاقب دلالة ﴿كَيْفَ﴾ بعد الأمر بالرؤيا ﴿ أَلَمْ تَرَوْا ﴾ مقصداً عظيماً، وبياناً بلاغياً عميقاً، يدل على عظيم البيان في القرآن الكريم، ودقة مكوناته اللفظية، وهذا من عظمة كلام الله تعالى وإعجازه.

فبدأ الله تعالى خطابه للمكذبين بلفت الانتباه إلى خلق السماوات، بأنهن سبع ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ ليقررهم بما يرون من الأدلة الظاهرة بأن ربكم خلق هذه السبع السماوات ﴿طِبَاقًا﴾ أي: بعضها فوق بعض. قال القرطبي رحمه الله تعالى: ومعنى ﴿طِبَاقًا﴾ بعضها فوق بعض، كل سماء مُطبقة على الأخرى كالقباب، قاله: ابن عباس، والسدي. وقال الحسن: خلق الله سبع سماوات طباقاً

على سبع أرضين، بين كل أرض وأرض، وسماء وسماء خلق وأمر[١] وقال الشوكاني رحمه الله تعالى: وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم من طرق عند أهل السنن وغيرهم عن جماعة من الصحابة أحاديث في وصف السماوات، وأن غلظ كل سماء مسيرة خمسمائة عام، وما بين كل سماء إلى سماء خمسمائة عام. وأنها سبع سماوات، وأن الأرض سبع أرضين[٢] فهن سبع سماوات متكاملات في الكمال والاتقان والجمال، حتى أن من يراها لا يجد فيها اضطراباً واختلافاً. فانتفى منها كل عيب، فإن من ينظر إليها ينبهر بجمالها ورصانتها وقوتها، وارتفاعها. بما يدل على عظمة الخالق عَزَّ وجل.

وأسند الخلق له عَزَّ وجل ﴿ **خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا** ﴾ فأثبت الله تبارك وتعالى للعباد بما يرون أنه خلق سبع سماوات. لتخصيص الانفراد بالخلق، بأن الخلق له وحده لا شريك له عَزَّ في علاه بما يفيد أن هذا قد استوجب منكم توحيد ربكم، وطاعته والامتثال لرسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم بعد هذا البيان والاستدلال على عظمة خلق الله تعالى للسماوات التي جعلها طباقاً، يتدرج بهم التوجيه الكريم العظيم إلى لفت انتباههم لبعض مخلوقاته العلوية عَزَّ في علاه، ومنها خلق الشمس والقمر، وما فيها من الآيات العظة. فقال عَزَّ وجل ﴿ **وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا** ﴾ فربكم هو الذي ﴿ **وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا** ﴾ أي: جعل ضياء القمر بخلاف الشمس ﴿ **وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا** ﴾ أي: ضياء بوهجها وأشعتها. فيدعو الله تعالى عباده إلى التأمل والتفكر في عظمة التباين والاختلاف بين نوعين من النور والضوء. فاختلفت الشمس عن القمر في تكوينها وخلقتها وهيئتها. وبالتالي تفاوت واختلف تبعاً لذلك الضوء منها. بما يدل على عظمة ما خلق سبحانه وتعالى، وفائق قدرته في خلق التباين والاختلاف، مع الدقة المتناهية. بما يدل على عظمة الخالق العظيم، جَلَّ في علاه. وأنه رَبَّ كل شيء ومالكه، وأنه على كل شيء قدير.

فهو الذي أنشأ الشمس من العدم ﴿ **وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا** ﴾ لتكون ضياء بوهجها وأشعتها، فيصبح النهار واضح المعالم، فيقضي فيه العباد مآربهم وحاجاتهم، بينما جعل القمر نوراً ﴿ **وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا** ﴾ لينتفع العباد بشعاعه على قدر حاجتهم، وليكون شعاعه مناسب لليل الذي جعله الله تعالى سباتاً، فينامون فيه النوم الهادئ الطويل، بما يكفيهم ويريحهم. فإن الضياء بالسراج ﴿ **وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا** ﴾ أكثر إيضاحاً

(١) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (١٩٧/١٨)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٦٢/١)

وبياناً لما يقع عليه السراج بوهجه. بينما النور أقل منه شعاعاً ﴿ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا ﴾ لتكونا آيتين مختلفتين في الإضاءة والنور. وهما آيتان عظيمتان، ونعمتان كبيرتان قد امتن الله تعالى بهما على عباده أجمعين.

ومن جميل البيان ودقته، أن سمى الله تعالى نور الشمس سراجاً، بينما نور القمر أو شعاعه بالنور، قال الشوكاني رحمه الله تعالى: قيل: الضياء أقوى من النور، وقيل: الضياء ما كان بالذات، والنور ما كان بالعرض، ومن هنا قال الحكماء: إن نور القمر مُستفاد من ضوء الشمس(١) وقال القرطبي رحمه الله تعالى: فالضياء ما يضيء الأشياء، والنور ما يبين فيخفى(٢) فمن تأملها من كل وجه تجلت له عظمة الله تعالى التي تُوجب توحيده وإفراده بالعبادة، ووجوب الإيمان بالغيب، ومن ذلك ما هو متعلق بالجنة والنار، والبعث والحساب والجزاء.

ثم بعد الاستدلال بعظمة قدرته سبحانه وتعالى على عظيم ما خَلَق من السماوات السبع، وبما خلق فيها من الشمس والقمر، وقبلها أنه عَزَّ وجل قد خلقهم أطوارا، فإنه ينتقل الاستدلال بهم مرة أخرى إلى أصل خلقتهم. ولكنه بوجه آخر. فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴾ فإن الله تعالى قد خلقكم من الأرض. بل ومن دقة البيان، وعظيم الغور بهم في التأمل، أن استعمل دلالة الإنبات ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴾ الذي أفاد شَدّ الانتباه لحالات الزروع. بأن شَبَّه خروجهم وأطوار نموهم بما هو عليه النبات، من الخروج من الأرض، ثم الترعرع عليها، بما يكون من أطوار حياتهم، ومراحل نموهم، وتقلبات أحوالهم، ثم الفناء بعد انقضاء مدة نموهم وآجالهم المختلفة. فبعضهم يستوفي شيخوخته، وبعضهم يموت من قبل، كحال النبات، فمنه من يهلك بعد خروجه، ومنه بعد ارتفاعه بقليل، أو حتى قيامه على ساقه، فيعجب به غيره من الزراع. فكذلك هو حال الإنسان.

وقد أسند الخلق إليه سبحانه وتعالى ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم ﴾ فهو عَزَّ وجل الذي أنبتكم بإخراجكم من الأصل الذي خلق الله تعالى منه آدم عليه السلام، وهو الطين الذي ينبت منه الزرع. فإن إنشاءكم هو كإنبات الزرع من الأرض ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ ثم أكد ذلك بقوله تعالى ﴿ نَبَاتٗا ﴾ أي: أخرجكم إخراجاً. بما يفيد أهمية التأمل في خلقكم ونشأتكم، ونموكم في أطوار متشابهة مع النبات. وكما أن النبات يموت، وتموت

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢/٤٢٥)

(٢) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (٨/١٩٧)

الأرض، ثم يحيها، فكذلك هو الإنسان، يموت ثم يحيهم الله تعالى يوم القيامة. فما لكم لا تؤمنون بالبعث بعد الموت؟

ثم بعد الموت يعيدكم في الأرض التي هي أصل نشأتكم وإنباتكم، فقال تعالى ﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ ثم يعيدكم بعد موتكم إلى الأرض التي هي أصل خروجكم ونشأتكم ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ ويخرجكم منها كما أخرجكم المرة الأولى. فتخرجون للحساب والجزاء. فإذاً أين وجه الامتناع؟ فلقد أوصلهم سبحانه وتعالى بالحجة البالغة إلى حقيقة الإيمان بالبعث بعد الموت. وأن ليس هناك عاقل بعد هذه الحجج الباهرة، والدلائل القاطعة أن يقول: بامتناع البعث. فلن يُكّذِّبَ به إلا المكابر. مما يبين أن دين الله تعالى قائم على البراهين والحقائق والعلم، بل ويُعَلِّم المؤمنين منهج القياس، والاستدلال الصحيح الذي يصل به المؤمن إلى الحقائق.

ثم ينتقل البيان من الله سبحانه وتعالى إلى أن الذي خلقهم من الأرض هو الذي بسطها لهم. فقال تعالى ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴾ فإن من إنعام الله ربكم عليكم أنه جعل لكم الأرض مستوية. بحيث لا يجد السائر في مناكبها ما يمنعه، ويعيق سيره ومراده.

ومن غزارة ودقة البيان أن دلالة ﴿ بِسَاطًا ﴾ قد أفادت نفي الامتناع والصعوبة التي لا طاقة لهم بها، فجمعت بالمقابل جميع أنواع التسخير، من التذليل، والسهولة، والطواعية، مع كثرة الانتفاع وتنوعه. بما يفيد عظيم الإنعام والامتنان. مع عظيم ما خلق لكم. فإن ربكم هو لا غيره الذي جعل لكم الأرض مذللة ومنقادة لكم ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴾ والجعل هو التسخير والتمكين، فبالرغم من قوة الأرض إلا أنه بقدرته وكرمه عَزَّ وجل سخرها لعباده، فجعلها مبسوطة وطوعة لكم، تسكنون عليها، وتمشون فيها، وتحرثونها وتزرعونها، وتنحتون وتحفرون فيها، وتُجرون الماء فيها، فقد بسطها وألانها لكم، ومكنكم منها، بما تحققون فيها وبها مآربكم في حياتكم الدنيا. أفلا يستوجب ذلك أن تشكروا ربكم، وتطيعوه؟ أولا يدل ذلك على أن الله ربكم قادر على كل شيء؟ فتؤمنوا به وبالغيب الذي أخبركم به سبحانه وتعالى.

ثم من كمال نعمته، وكمال خلقه الدال على ربوبيته وألوهيته ووحدانيته أنه عَزَّ وجل جعل في الأرض طُرقاً ومسارات للعباد ﴿ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ فجعل تبارك وتعالى في الأرض ﴿ سُبُلًا ﴾ أي: طرقاً مؤدية ومفضية إلى غيرها. كما جعل في الجبال فجاجاً ﴿ فِجَاجًا ﴾ والفج هو: المسلك والطريق الواسع. ليشمل الطرق التي بين الجبال، والطرق الأخرى التي في الأرض. بل وردت ﴿ سُبُلًا ﴾ وكذلك الفجاج ﴿ فِجَاجًا ﴾

بصيغة الكثرة، لإفادة المبالغة في كثرة السُّبُل والفجاج التي لا تحصى من كثرتها، وتعددها. فأين أنتم من عظيم هذا التدبير؟

ومن جميل البيان أن وردت السُّبُل بصيغة التأكيد والتوضيح والتعدد ﴿سُبُلًا﴾ وهي أكثر تعمياً من الفجاج، فالسبل أعم من الفجاج، إذ هي طرق نافذة، ومفضية غير مغلقة. كما أن الفجاج غالباً ما تكون بين شيئين، مثل أن تكون بين جبلين أو أكثر. وتتصف الفجاج بالسعة، وهي أوسع من الشِّعَاب. وبإضافة الفجاج إلى الْسّبُل ﴿سُبُلًا فِجَاجًا﴾ ما يؤكد أن الفجاج طرقاً مفضية لغيرها، وليست مُغلَقة النهاية. وهذا من دقائق البيان الدال على إعجاز دلالات كلام رب الأنام سبحانه وتعالى.

وهذا امتنان من الله عَزَّ وجل على العباد بما جعل لهم في الأرض من السُّبُل والفجاج الكثيرة، فقد أنشأ لكم في الأرض، وبين الجبال سُبُلاً وفجاجاً وطرقاً تسيرون بينها، وأودية وممرات للسيول، حتى لا تؤذيكم في مساكنكم ومزارعكم. بل إن هذا الجعل هو ﴿لَكُمُ﴾ فكل ما جعله في الأرض هو لكم أيها الناس، أنتم المخصوصون بذلك الإنعام والإكرام، فهو إكرام وإحسان وتفضل من ربكم عليكم. بما يفيد: لعلكم بذلك التفضل تتواضعون للحق الذي جاءكم، وتهتدون وتؤمنون. فإن ربكم قد جعل لكم في الدنيا ما تهتدون به في سيركم وتنقلكم لقضاء مقاصدكم وحوائجكم بين البلدان والأقطار، فلا يصعب عليكم السير بسبب أي عائق من الجبال أو غيرها. وكذلك أرسل إليكم ما تهتدون به إلى الحق الذي يُوصلكم إلى الجنة. مما يثير السؤل عن عدم طاعتكم لربكم بما جاءكم من الحق؟ مع قرينة هذا الإنعام الذي تُقِرُّون به، ثم تتوجهون للشرك. فهل تجعلون الاستكبار والعناد والحسد، وشهوات الدنيا هي السبب لكم في معصيتكم لربكم عَزَّ في علاه؟ فبهذا ألزمهم وأعلمهم بما هم عليه من الخطأ، وأقام عليهم الحجة، وأثبت أن ما دعاهم إليه رسولهم نوح عليه الصلاة والسلام هو الحق. وهو ما ينطبق على المكذبين من قوم نوح عليه الصلاة والسلام وينطبق كذلك على من بعث الله تعالى فيهم نبيه محمد صلى الله عليه وسلم رسولاً إليهم. فإن في عدم إفرادكم ربكم سبحانه وتعالى بالعبادة، وصرفها لمن لا يستحق فإنه هو الباطل بعينه، والذي يتنافى مع هذه الحقائق والحجج والبراهين.

﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾
وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ
الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾
وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا

فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾

بعد كل هذا السرد من الحجج والبراهين والأدلة التي أقامها نوح عليه الصلاة والسلام على قومه، وهذا الزمن الطويل الذي بلغ ألف سنة إلا خمسين عاما، يرفع نوح شكواه إلى الله تعالى من قومه الذين ما زالوا على عصيانهم وتمردهم. فقال الله تعالى عنه ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴾ فيقول الله تبارك وتعالى أن رسوله نوح عليه السلام بعد ذلك البيان لهم من الدلائل والحجج والبراهين، وذلك الزمن الطويل، فإنه يشكو من قومه عدم طاعتهم له، فلم ينتفعوا بما قال وحذرهم منه. فإنهم قد عصوه ولم يُطِيعوه ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى ﴾ أي: لم يسترشدوا بما أرشدتهم به من البراهين والحجج، وظهور الحق المبين لهم. وإنما كان حالهم هو أنهم ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴾ أي: واتبعوا الضالين المفتونين بأموالهم، وكثرة أولادهم، وتفاخرهم بهم، فلم يزدادوا بتلك النعمة ﴿ إِلَّا خَسَارًا ﴾ فخسروا بها الآخرة. مما يبين أن فتنة بعض الناس بتقليدهم كبراءهم المفتونين بفتنة المال وكثرته، وكذلك بفتنة كثرة الولد. وبما يفيد ويُظهر أن قوة فتنة المال والولد قوية عند الجهلاء بربهم. بما يفيد ويعني الحذر من الغرور بالنعمة، فإنها فاتنة عن قبول الحق عند أهل الكفر والجهل.

ثم يبين خديعة أولئك المفتونين بالمال والولد، وبمن تبعهم من الأتباع. فقال ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ أي: وخَدعُوهم خديعة كبيرة. وذلك بأن زينوا لهم ما هم عليه من الكفر، وفتنوهم عن الحق والهدى. حيث زينوا لهم الشرك، فنهوهم عن ترك معبوداتهم من الأصنام ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ فقال لهم سادتهم وكبراءهم: ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ﴾ أي: لا تتركوا ﴿ ءَالِهَتَكُمْ ﴾ أي: معبوداتكم من الأصنام، وهذا النهي على وجه العموم، ثم أكدوا لهم على وجه التخصيص ما يفيد الحرص، والتحريض. فأسموا لهم تلك المعبودات ﴿ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ فهي أسماء تلك الأصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله عَزَّ وجل.

ثم يخاطب نوح عليه الصلاة والسلام ربه عَزَّ وجل، قائلاً ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴾ فقد أضل هؤلاء الأسياد والكبراء والأعيان غيرهم من الناس بهذا الإضلال، بل ورد البيان بصيغة

التكثير ﴿ وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ ﴾ أي: ليس القليل من الناس، بل الكثير. ثم بناء على هذه الحقائق يطلب نوح عليه الصلاة والسلام من الله تعالى أن يهلكهم ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا ﴾ فيا الله لا تزيد هؤلاء الظالمين على ظلمهم إلا المزيد من الضلال الذي تزداد به العقوبة. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: ولا تزد الظالمين أنفسهم بكفرهم بآياتنا ﴿ إِلَّا ضَلَٰلٗا ﴾ إلا طبعاً على قلبه، حتى لا يهتدي للحق(١) وذلك عقوبة على تماديهم في الكفر، ومعاداتهم للحق.

ثم يخبر اللهُ سبحانه وتعالى باستجابته لدعاء رسوله نوح على قومه، فقال تعالى ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا ﴾ فبسبب خطيئاتهم من ذنوب وإثم الشرك، وعنادهم، وعدم استجابتهم لرسولهم عليه الصلاة والسلام ﴿ أُغۡرِقُواْ ﴾ فأغرقهم الله تعالى بما أنزل من السماء من الماء، حتى ارتوت الأرض، وفاضت بما فيها، فأهلكهم الله تعالى في الدنيا بالغرق، ونَجَّا اللهُ تعالى نوحاً ومن معه في الفلك التي صنعها.

وأمافي الآخرة فقال تعالى عن هؤلاء الظالمين ﴿ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا ﴾ فانتقلوا من الغرق إلى عذاب النار ﴿ فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا ﴾ فلم يكن لهم مُغيث، ولا مُعين ينقذهم من ذلك الغرق، ولا من عذاب النار في الآخرة. ومن دقائق البيان قول ابن السائب رحمه الله تعالى: المعنى: سيدخلون في الآخرة ناراً، فجاء لفظ الماضي ﴿ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا ﴾ بمعنى الاستقبال، لأن الوعد حق. هذا قول الأكثرين(٢) فقد دل السياق بالماضي أن تحقق فيهم ما حكم الله تعالى به عليهم. مما يفيد التحذير لكل حي من هذا المصير، فيشمل من كان في عهده صلى الله عليه وسلم، ومن يأتي بعده. فإن عذاب الله تعالى ليس له مثيل، ولا مجير، ولا عاصم إذا أحاط بالكافر. وهذا البيان هو من رحمة الله تعالى، إذ يُنذِر الناس من الكفر، ويعظهم ويحذرهم، ويحثهم على طاعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بهذا القصص عن قوم نوح عليه الصلاة والسلام.

ومن شدة ما وجد نوح عليه الصلاة والسلام من قومه أن بالغ في الدعاء عليهم ﴿ وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ فقال نوح عليه الصلاة والسلام داعياً ربه ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرۡ ﴾ لا تترك

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٠٥/٢٣)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٩٨/٨)

﴿ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ أي: ولا تترك أحداً منهم يدور ويتحرك في الأرض. إذ أفادت ﴿ دَيَّارًا ﴾ الدوران والحركة، أي: يدور في الأرض. قال الطبري رحمه الله تعالى: يعني بالدَّيار من يدور في الأرض، فيذهب ويجيء فيها[١] فهو طلب استئصال هؤلاء الكافرين من الأرض، فلا يبقى أحد من هؤلاء الكفرة المعاندين.

ثم علل هذا الطلب عليه الصلاة والسلام ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ إنك إن تتركهم يا ربنا في هذه الأرض أحياء، فإنه يحصل منهم الغواية لغيرهم ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ ﴾ أي: يُفسدوا عبادك، بأن يجعلوهم في ضلال الكفر يتيهون. وكذلك ﴿ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ ولن ينجبوا شيئاً من الذرية إلا أنشأوهم ورَبّوهم على الفجور، وعلى الكفر. فالفاجر هو الخارج عن طاعة الله عَزَّ وجل، والكفَّار هو المبالغ في صفة الكفر، فيجمع بين الفجور في الأعمال، والكفر في الاعتقاد. فهو مبالغة في الوصف، وذلك لما شاهد عليه الصلاة والسلام من عتوهم وفجورهم، وشدة كفرهم.

ثم اتجه نوح عليه الصلاة والسلام بالدعاء والتوسل إلى الله تعالى لنفسه ووالديه، ولمن دخل بيته من أهل الإيمان، وللمؤمنين والمؤمنات. فقال عَزَّ وجل عن دعائه أنه قال ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴾ فبدأ بخاصة نفسه ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى ﴾ أمحو ذنوبي يا رب، واسترها، ولا تعاقبني على تقصيري. مما يفيد أنه مهما بلغ الإنسان من الطاعة فإن التقصير يلحقه في حق الله تعالى. فمهما عمل العبد فلن يُوفِّي حق الله تعالى، فيسأل الله تعالى المغفرة. ثم سأل لوالديه ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ ﴾ لأن الوالدين هم أقرب الناس للعبد، وأصله. كما أن بِرَّهُم هو من القربات إلى الله تعالى، ثم خص المؤمنين الذين ساندوه، ودخلوا بيته إكراماً وسنداً ﴿ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا ﴾ ثم أورد الدعاء لعموم المؤمنين ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ ليشمل بذلك كل مؤمن ومؤمنة، في عهده، وبعده. وفي هذا أهمية الدعاء، وطلب المغفرة من الله تعالى، وتخصيص الوالدين المؤمنين، ومن يدخل بيت المؤمن من المؤمنين، وتعميم الدعاء لجميع المؤمنين. فهذا من حقوق المؤمنين بعضهم على بعض.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٠٧/٢٣)

وفي تخصيص من دخل بيته مؤمناً ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا﴾ القصر عليهم، بما ينفي به كل من دخل بيته من أهل الكفر. وهو تخصيص دقيق، عماده الإيمان، وليس غير ذلك. ثم ختم الدعاء على الكافرين، تأكيداً على طلب الهلاك لهم ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ وأما الظالمين بالكفر والتعدي على دين الله تعالى فلا تزدهم يا رب إلا المزيد من الخسارة، والهلاك والدمار. مما يفيد التحذير للمشركين من أن يحصل لهم الهلاك بالدعاء عليهم من الرسول صلى الله عليه وسلم.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة نوح. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.